

إقبال

ورسائله الكبرى في الحياة

جواد الم رابط *

عندما أردت اعداد ما سألقيه أمامكم حرت بالموضوع الذي أتحدث عنه ،
كنت لا كما قال الشاعر :

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد
بل بالعكس كانت حيرتي من ناحية انه منذ وفاة المغفور له محمد اقبال
حتى اليوم أي منذ خمسين سنة قيل بحقه مئات المحاضرات وفيها كل مايتوقع
أن يقال . لذلك جعلت موضوعي لا عن زمن عاش فيه ولا عن مثل ما كان قيل
فيه بل عن أمور تتصل بحياتنا الحاضرة وتتصل بنا ، عن العرب وما تهمنا
معرفة عن السوريين .

وهكذا جعلت المحاضرة عما له صلة بأقوال اقبال من ستة أمور هامة :

(أولها) عن الغزو الفكري ، و (ثانيها) عن الحب والجمال ، و (ثالثها) عن
وحدة الكلمة والتعاون على ما يعود بالنفع على العالمين العربي والاسلامي و (رابعها)
عن المخاطر التي تنجم عن الخلاف وتشتت الكلمة و (خامسها) عن أثر أقوال اقبال في
سياسة باكستان نحو العرب ، و (سادسها) عن أهداف نذر اقبال نفسه ليؤديها كرسالة
يؤمن بها لخير الانسانية .

ان في الأفكار التي نقلت عن شاعر الاسلام محمد اقبال طيب الله ثراه ، سواء في
شعره البليغ أو نشره المبين الفصيح ، ما يجعل العربي والمسلم يفخر بماض مجيد ، ويتوثب
نحو نهضة مباركة ، قوامها جمع الشمل ، والعمل لمستقبل مشرق ، واغناء الانسانية
بما يوطد فيها روابط المودة والاخاء ، واذكاء الروح لعمل الخير .

* مولود عام ١٩٠٥ ، خريج معهد الحقوق بدمشق عام ١٩٢٣ ، شغل مناصب ادارية وسياسية متعددة . منها
وزير مفوض في السعودية العربية ثم في باكستان . له عدة مؤلفات .

يروى أن ابن المقفع سئل لم لاتقول الشعر ؟ فقال : ما أريده لايجيئني ومايجيئني لا أريده . أما محمد اقبال فكان يجيئه ما يريد ، وما يجيئه هو الذي يقصده عن ايمان به للتعبير عن أسمى الأهداف . وان من شعره ما فيه فيض من الجمال بعدوية نغمه ، أما روعة معانيه فهي تنعش وكأنها نسيمات الفجر عند بزوغه .

واذا كان من طبيعة الانسان أنه لا يستطيع أن يحب لغيره أكثر مما يحب لنفسه ، فان محمد اقبال مثله الشهيد من هذه الناحية كان يلهب ذهنه طول التفكير في حاضر الأمة ومستقبلها الى أن وافته المنية وسيرته جديرة أن تعرف على نطاق واسع لأن فيها خيرمانحب أن نجده من العلماء والشعراء والذين بيدهم التوجيه التربوي .

واذا كان من مقتضى ناموس النشوء والارتقاء أن يقضى بذهاب ما لا يصلح ، وكان ما يصلح من أفكار قد تعترضه عوائق دون التسليم بفائدتها ، فان الأفكار التي أيداهما محمد اقبال فيها كل ما يصلح ، فيها ما نحن بحاجة لمعرفة والاستنارة بأنواره . أوضحت الأحداث ذلك ، والسبب هو أنه انتشر بين كل شعب من الشعوب في شرقنا ما عبّر عنه بقوله :

هي المدنية الحمقاء ألقت بهم حول المذاهب حائرنا

لقد صنعت لهم صنم الملهي لتعجب عنهم الحرم الأميننا

فكان من انتصار الغزو الفكري في كل شعب ان سادته نظرتة الخاصة التي تتمشى مع غريزة حب الأثرة ، فأضعفت بوجودها النظرة الانسانية الشاملة التي يعد من أكبر الدعاة اليها محمد اقبال . وذلك لترفعه عن الصغائر ، ولوعيه التام بما فعله الغزو الفكري ، وما فعلته الأهواء والشهوات والمطامع ، وهي التي كانت معها الرعود القاصفة والزوابع المزلزلة ، ونحن نجد صورتها في مآسي التمزق في لبنان ، وفي فواجع العراق وايران .

لقد أشقى هؤلاء وأولئك انهم نسوا ماتوجيه الأخوة ومصلحة الجميع من جعل التعاون يرجع على كل اعتبار آخر ، ولأن كلا منهم يريد أن ينزل أخوه على حكمه . قال الشاعر:

واذا زل الرفيق وأنت ممن بلا رفق بقيت بلا رفيق

وان فيما هو واقع بين العرب من خلافات وقطيعة وما ينتشر في سماء كل من غيوم غاضبة ما يعلن عن سلامة ما كان يدعو اليه محمد اقبال .

فماذا يريد اقبال للعرب ؟ ماذا يريد للمسلمين ؟ ماذا يريد للمجتمع الانساني ؟

انه يريد للجميع سعادة لا شقاء ، وتسامحاً لا تعصباً ، وعدلاً لا ظلماً ، ومودة لا عداوة ، وحبوراً لا نفوراً .

لقد دعا محمد اقبال لرؤية الحياة العصرية على حقيقتها . أوضح ما ينفع منها وما يضر . ودعا لبناء حياتنا على ما لنا من مجد الماضي وما يمتاز به من قوة روحية

وايمان بالله ، الى جانب ما أنتجته الحضارة المعاصرة من رقي علمي وانتاج صناعي .
ونبه في الوقت ذاته الى الغايات القادرة التي يعمل لها المستعمرون والطامعون عن طريق
ما لهم من عملاء لاثارة الفتن بين العرب أنفسهم ، وبينهم وبين المسلمين ، وبين
الطوائف التي تعيش بسلام مع العرب والمسلمين ، كما نبه لما يدس من تشويه لسيرة
المخلصين العاملين في خدمة امتهم ووطنهم لا سيما أولئك الذين ينادون لتحقيق الوحدة
العربية والعمل للتعاون مع العالم الاسلامي (١) .

هذا وان من الظلم أن ينسى لفاضل ماله من خدمات ويتسقط له ما قد يقع من
الانسان ويتوب منه ، او قد يكون ما نسب اليه لنقمة أو لكره أو لحسد . ثم ان من
الظلم أن يزعم أن الانسان ، ما عدا الأنبياء، يفترض فيه العصمة قال تعالى : (ان ربك
هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) لماذا ؟ لأن في الحياة أسراراً وراء أسرار
وفي كل انسان خفايا لا يعلمها الا الله .

رحمتك يا رب ! نحن في عجز كفاءاتنا المحدودة التي عليها خلقتنا ، وما نعلمه وما
نقدر عليه انما هي امكانات أنت الذي خلقتها ووجدت بها علينا بقدرتك التي لا تحد وهي
من نعمك التي لا تحصى . وما خلقنا عرضة للزلل والخطأ الا لتكون أنت وحدك الغفور
وأنت وحدك القادر على كل شيء ، وهذا وحده هو الذي لا يخترق حرمة قداسته الا من
لا يؤمن بك .

وبما أنه لا غنى للشاعر بل ولكل فنان عن عاطفة تهزه بالحب والجمال ، وتوقد في
نفسه الشوق والحنين ، وما يملأ النفس بالأحاسيس الندية ، فان هذه الظاهرة نجدها
بادية في شعر اقبال ونثره .

فما أروع هذا الحب الذي بوجوده يوجد معه سر النعيم في الحياة ، وبوجوده يكون
كل شيء على ما يرام ، اذ تتسامى فيه النفس ويمارس بوجوده البر في خدمة الناس .

وما أروع هذا الجمال وهو الذي يثير في الذات وقدة الشوق فتصدق فيها بالأنغام
الساحرة . ان في الحب والجمال السعادة التي تطل علينا بالوجه المشرق والثغر البسام .

وغني عن البيان ان الحب هو الذي يخلق في الشاعر أروع ما يقول بسبب ما
يخلقه فيه من سماحة ورقة وحنين وأشواق .

كما أن الجمال هو الذي ترتفع به النفس نحو العلاء ، نحو الله ، ونقدس فيه روعة
ما خلق من نجوم وشموس وأقمار وأنوار وظلال ، وأنهار وبحار وجبال وورود
وياسمين وزنايق ورياحين .

١ - كشان ما ظهر حديثاً من تشويه لسيرة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري والاستاذ
يوسف النبهاني وما نسب للأمير شكيب أرسلان والشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ بدر الدين الحسيني وهم منه
براء والمقصود من تشويه سيرتهم أن لا تقرأ كتبهم لا سيما خاطرات جمال الدين الأفغاني ، ورسالة التوحيد ،
وحجة الله على العالمين ، وحاضر العالم الاسلامي ، ولماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم .

ويا لفجیعة البشریة من أناس لیس فی قلوبهم حب ، أعماهم الغرور والمطامع فهم یعملون بما یعدونه من قنابل ذریة لیقذفوا فی بضع دقائق ما علی الأرض من جمال الی الهاویة الأبدیة •

فلو لم یخلق الله فی قلوبنا غریزة الحب، ولم یخلق فی الدنیا الجمال ، كنا کمن لم یخلق له عیوناً یرى بها ما فی الکون من روائع، وکمن لم یخلق له آذاناً یسمع بها ما یُطرب من تغرید وهدیل •

فما كنا لولا الحب والجمال یشرق لنا أنس ولا تطیب لنا الحیاة ، ومن ثم ما كنا لنأسف علی زوال حیاة لیس فیها الا الاعیاء ومشقة الکدح ، وما كنا نأسف علی تدمیر الأرض التی لا حب فیها ولا جمال •

قال محمد اقبال :

(الحب هو المصدر الأعلى لكل فن عظیم، فهو وحي الفنان ، وهو دوافعه الخلاقه ، والانسان الذی لیس فی قلبه حب فهو شبه انسان) •

وقال :

(لا یمکن اصدار الحكم عما هو خیر أو شر ، صالح أو غیر صالح) ، ان لم یکن للحب المکانة العلیا ، وبأن یمکن له الوجود فی المبدأ والغایة) •

وقال :

(ان الفلاسفات التی غاب عنها أن الحب الخلاق هو الذی یحل لغز العوائق فی الحیاة ، ما تكون تلك الفلاسفات الا باقات من الزهر الصناعی) •

وقال :

(ان دیناً لیس من مبادئ الدعوة الی المحبة ، وتقدير الابداع الحکیم ، وروعة الجمال فی الکون ، هو دین باطل ، کل ما فیہ انه وسیلة استغلال طبقة من الناس سذاجة غیرهم) •

وقد احتلت أفكار اقبال لدى أكثریة المسلمین فی الهند منزلتها الجدیرة بها ، وكانت أشعاره ومحاضراته تستهویهم ، فكان بین الفریقین ما یشبه نظرتی عاشقین وما یعبر کل منهما للآخر من شوق وحنین ، ومن ثم نبتت من التوافق بینهما تلك الدوحة المزدهرة التی هی پاکستان •

فباكستان وهي التي تعتبر ثمرة دعوة محمد اقبال ، ورأت نور الوجود علی يد القائد الأعظم محمد علی جناح ، وقد أتاحت لی السعادة ان عشت فیها أمثل سوریه خمس سنوات ، تسمح لی تلك المدة أن أشهد بأن حکوماتها المتعاقبة ومواطنیها الکرام یمثلون فی عملهم ومساعدتهم ، ما كان خططه لهم اقبال من العمل لخیر العالمین العربی والاسلامی •

لقد قال اقبال وهو الأب الروحي لباكستان يعبر عن ثورته للمأساة يراها في العرب كما يراها بين المسلمين هي انهم مشتتون لا يجمعهم الشعور بما يتهددهم من مصير أسوأ مما هم فيه ، قال شعرا :

**كل شعب قام يبغي نهضة
وأرى بنيانكم منقسما
في قديم الدهر كنتم أمة
لهف نفسي كيف صرتم أمما**

أقول ما من بقعة من بقاع العالم العربي يرضى ضمير العربي بما هي فيه من تجزئة يضاف الى ذلك ان كل دويلة أضعف من أن تقاوم أطماع المستعمرين اذا ما توحدت كلمة أولئك المستعمرين كما كانت توحدت على (الرجل المريض) أي الدولة العثمانية ، لأن أولئك المستعمرين يكونون أقصر يداً وأعجز قدرة من أن يقدرُوا على العرب اذا اتحدوا ، وكان تعاونهم عن اخلاص في العالم الاسلامي . ثم ان هذا التعاون يحرر العرب من حدود الظروف التي هم فيها ، ويجعلهم أقدر على أن يفرضوا ارادتهم ليعودوا يحملون مشعل الحضارة كما حملوا مشعلها من قبل وليشاركوا في اغناء التراث الانساني .

قال محمد اقبال : وكأنني أراه يقول هذا وهو يستفرغ فيه جميع ما في طاقته من قول ينصح به :

(انكم تجتازون في عصركم هذا أدق مرحلة من المراحل ، وتمرون بأصعب دور من أدوار الحياة ، ونجاتكم رهينة باتحاد كلمتكم ، وتعاونكم في العزائم والجهود ، وفي الوسائل والغايات .

**كل من بالحق أحيانا نفسه
ليس بالباطل يحني رأسه)**

واني أضيف الى قوله هذا من قلب يصرخ بكلمات هي التعبير عن أمنية كل عربي شهيم وغاية كل مواطن شريف :

(عندما تكون المسألة مسألة انقاذ الوطن والخوف من عدو عات ، فما يكون هنالك موضع لشيء آخر سوى العمل لانقاذ الوطن . وهذا يوجب أن نتبع الحكمة الكبرى التي أمر بها سبحانه بحق من عصوا النبي قال (فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون) فلم يأمر نبيه بمقاطعتهم ، وانما أمره بالبراءة من عمل سيء ارتكبه . ومن ثم نهى النبي عن التقاطع والتدابير وأمر بالتعاون الا على ما كان فيه شر أو ظلم أو عدوان .

قال الشاعر :

**اذا كنت في كل الأمور معاتباً
صديقك ، لم تلق الذي لا تعاتبه
وان أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظلمت ، وأي الناس تصفو مشاربته!**

هنالك عمل عظيم لانقاذ الوطن العربي ككل ، وهذا العمل العظيم لا ينجزه أبداً التباعد بين العرب ومقاطعة بعضهم بعضاً . لا ينجزه أبداً مجرد ترتيل قوله تعالى : (ان

هذه أمتكم أمة واحدة) كما لا ينجزه أبداً مجرد القول (العرب أمة واحدة ذات رسالة خالدة) . وان لم يتم التعاون باخلاص ووحدة الكلمة كحد أدنى بين العرب ، فلن تكون حياتهم الا سلسلة متواصلة من المحن والتحديات الطاغية ، فاذا سلم فريق بفعل الظروف ، فلن يسلم أيما فريق عند تبدل الظروف، ولا تكون سلامته الا لوقت محدود، فهي ليست من السلامة في شيء) .

ذكرت ، أيها السادة ، ماسمح به الوقت عن الغزو الفكري ، وعن الحب والجمال ، وعن وحدة المسلمين ووحدة العرب ، وكان رابع أمر ذكرته عن المخاطر التي تنجم عن الخلاف وتششت الكلمة ، أي ما ذكره اقبال عن تلك الأمور وما علقت به عليها . والآن أحدثكم عن أثر أقوال محمد اقبال في سياسة باكستان نحو العرب هو أن باكستان حسب ما أعرفه منذ كنت فيها تسير على ما خطه محمد اقبال ، تؤيد العرب في كل أمر مصيري لهم وفي كل ما يتفقون عليه ، وان موقفها من أجل أقدس قضاياهم وهي فلسطين هو نفس الموقف الذي يقفه العرب، ونفس الموقف الذي كان من الجميع نحو الجزائر الى أن حررها أبطال في صمودهم وبسالتهم وعدم استسلامهم ومواصلة حريهم ضد المستعمرين . على مثل ما نشاهده اليوم من أبطال المقاومة الفلسطينية الذين لا يعد انساناً ذا ضمير ، ولا يعد عربياً فيه مقلدة الشهامة العربية من لا ينتصر للحق والعدل ، بمعنى لا ينتصر لمن هم اذا خسروا خسر معهم العرب مجدهم ، وان هم انتصروا انتصرت معهم كرامة العرب، لأن ذلك الانتصار علامة وحدة كلمتهم ، وبوحدتهم هم أمة ، ولن تكون أمة الا بوحدة كلمتها .

ان من حق باكستان في ذكرى الشاعر الكبير والفيلسوف الفذ محمد اقبال أن نحيا نحن العرب معها ذكراه، ونحيا أيضاً باكستان وكل دولة لها الأهداف المثلى التي تشابه الأهداف التي ذكرها اقبال والتي فيها حلم كل انسان حي الضمير نبيل الروح والمقاصد، هو اعلان السلام العالمي ونوال كل شعب حقوقه الانسانية والقومية ، وهو يوم نصفق فيه مبهجين بأيدينا وقلوبنا .

ولكن هذا اليوم سيسبقه يوم قبله وهو قريب ان شاء الله هو تحرير اخواننا الفلسطينيين وطنهم واقامة دولة لهم . لأن الفلسطينيين لا يمكنهم انتظار حلم يحتاج لزمن مديد لتحقيقه . وبالتالي فان الفلسطينيين وهم الذين يجدون التأييد الكلي من أحرار العالم ومن سورية بصورة خاصة ، قرروا أن يمشوا على جثة كل من يقاوم مسيرتهم ، لأنهم على عزيمة المصير على النصر . فهم لن يستسلموا اذا هزموا مرات ، لن يستسلموا ولو هزموا مرة ، لن يستسلموا لأن النصر النهائي نصيب من لا يستسلم .

ألا رحم الله محمد اقبال لقد كانت دعوته (لاخلاص العمل) لا لمجرد قول الشعر بزعم (التزام الفن للفن) . وكان يتغنى بشعر يملأ النفس روعة وإيماناً ، وله من النصيح والتوجيه ما يجعلنا في ذكراه نحيا فيه رائداً من أكبر الرواد العاملين لتحرير الشعوب .

وانما يتم تحريرها بمواصلة العمل باصرار من أبطال ، لا بالتهالك على الزبد من الأقوال .
قال محمد اقبال :

الخطوة الأولى لنهضة أمة تحريرها بالعزم والاصرار
فمجال تحرير النفوس أمانة موصولة بنزاهة الأفكار
والشعب حين يضل في آماله عن قصده ، لم يلق غير بوار

ان دعوة اقبال لتحرير الشعوب انما هي انتصار للشعوب الساعية لتحريرها بحق تقرير مصيرها . ولكن هذا لا يعارض الدعوة للسلام العالمي الذي يجب أن يحقق احترام الحب في القلوب ويجعل التعاون على أساس من العدل والمودة بين الشعوب ، قال :

فاذا تضافرت الذوات تناولت ما تبتغيه من علا وأمان
اود رابطة الشعوب لو انه متحقق عاش الوري بأمان

هذا وان محمد اقبال من أكبر الدعاة للتحرر من التخلف والبؤس ، ذلك أنه أكثر الحديث شعراً ونثراً عن قوله تعالى في آية جمعت من بلاغتها ما يتكفل بالقضاء على كثير من الجرائم بسبب ما تدعو اليه من (عدالة اجتماعية) هي قوله سبحانه (في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) .

ألا رحم الله محمد اقبال قدر ما نفع بتخطيطه من أجل تحمل كل انسان مسؤولياته والقيام بواجباته . وجعل حثه على ذلك بشعريعبق بالأريج كما تعبق الأزهار والرياحين .

رحم الله محمد اقبال فقد جعلنا نستبشر في الحياة البواعث الطاهرة وبأنا خلقنا لعظائم الأمور ، وان لا صعوبة عظيمة عند النفس العظيمة .

يريد اقبال أن لا نكون نائمين نستسلم لمذلة أو يستبد بنا سبآت .

يريدنا أن نكون على مثل ما تسير عليه اليوم سورية من صمود وبسالة لتحقيق للعروبة خير المآل ، ولسهر رجال صمود أصحاب شهامة فيها ، هم الرجال .

يريدنا لتكون في الذروة العليا من الجبل في اعتزاز ، العزة تملأ رحاب نفوسنا ، ويعمر قلوبنا الايمان وما للايمان من رسالة كبرى في الحياة ، نعمل مع من يعملون للسلام العالمي ، لتجنب الظلم والعدوان والشر وهي التي تدوي منها في الآفاق رعود ، وتجعل الغالب والمغلوب ألا يقفوا الا على جثث وأنقاض .

لقد كان لمحمد اقبال ذلك الشاعر الكبير والفيلسوف الفذ والداعية بشعور متقد من محبة للعرب رسالة كبرى في الحياة هي العمل لخير الانسانية ثم هو يريد ما تريدونه أنتم يا اخوتي الكرام ، يريد أن يعود للعرب اشراق نجم سعدم ، وأن يسترجعوا بوحدتهم كوكب مجدهم .